نزار قباني .. عاشق دمشق

يقول: «لا أستطيع أن أكتبَ عن دمشق، دون أن يُعرِّشَ الياسمين على أصابعي.
ولا أستطيع أن أنطقَ اسمها، دون أن يكتظَّ فمي بعصير المشمش، والرمان، والتوت، والسفرجلْ.
ولا أستطيع أن أتذكّرها، دون أن تحطَّ على جدران ذاكرتي ألف حمامةٍ .. وتطير ألف حمامة».
تتوغَّل «دمشق» في لغة الشاعر، إلى حَدِّ أنَّ أبجديتها ليست إلا صورةً، تمثيلاً لكائنات المكان:
«كلُّ حروف أبجديتي مُقتلعةٌ حجراً حجراً من بيوت دمشق ... وأسوار بساتينها، وفسيفساء جوامعها...
قصائدي كلُّها معمّرة على الطراز الشامي ..
كلُّ أَلف رسمتها على الورق هي مئذنةٌ دمشقية ..
كلُّ ضَمَّةٍ مستديرة هي قبَّةٌ من قباب الشام ..
كلُّ حاءٍ هي حمامةٌ بيضاء في صحن الجامع الأمويِّ ...
كلُّ عينٍ هي عينُ ماء..
كلُّ شينٍ هي شجرةُ مشمشٍ مُزهرَة ..
كلُّ سينٍ هي سنبلةُ قمح ..
كلُّ ميمٍ هي امرأة دمشقية .. وما أكثر الميمات في دواوين شعري ..
وهكذا تستوطن دمشق كتابتي، وتشكِّلُ جغرافيتها جزءاً من جغرافية أدبي ..»

شاعر لا يتكرر ملء الدنيا بشعره، وهو واحد من أكبر شعراء العربية المعاصرين كتب الغزل ووصف دمشق ومآذنها وأزقتها وكتب عن هموم الأمة العربية.

تميزت قصائده بلغة سهلة وجدت بسرعة ملايين القراء في أنحاء العالم العربي.

ولد نزار قباني في 21 آذار/مارس 1923 في حي مئذنة الشحم ..أحد أحياء دمشق القديمة من أسرة دمشقية عريقة إذ يعد جده أبو خليل القباني رائد المسرح العربي.

يقول عن نفسه: «ولدت في دمشق في آذار/مارس 1923 بيت وسيع، كثير الماء والزهر، من منازل دمشق القديمة، والدي توفيق القباني، تاجر وجيه في حيه، عمل في الحركة الوطنية ووهب حياته وماله لها. تميز أبي بحساسية نادرة وبحبه للشعر ولكل ما هو جميل. ورث الحسّ الفني المرهف بدوره عن عمه أبي خليل القباني الشاعر والمؤلف والملحن والممثل وباذر أول بذرة في نهضة المسرح المصري.

امتازت طفولتي بحب عجيب للاكتشاف وتفكيك الأشياء وردها إلى أجزائها ومطاردة الأشكال النادرة وتحطيم الجميل من الألعاب بحثًا عن المجهول الأجمل. عنيت في بداية حياتي بالرسم. فمن الخامسة إلى الثانية عشرة من عمري كنت أعيش في بحر من الألوان. أرسم على الأرض وعلى الجدران وألطخ كل ما تقع عليه يدي بحثًا عن أشكال جديدة. ثم انتقلت بعدها إلى الموسيقى ولكن مشاكل الدراسة الثانوية أبعدتني عن هذه الهواية.

وكان الرسم والموسيقى عاملين مهمين في تهيئتي للمرحلة الثالثة وهي الشعر. في عام 1939، كنت في السادسة عشرة. توضح مصيري كشاعر حين كنت وأنا مبحر إلى إيطاليا في رحلة مدرسية. كتبت أول قصيدة في الحنين إلى بلادي وأذعتها من راديو روما. ثم عدت إلى استكمال دراسة الحقوق.

تخرج نزار قباني في كلية الحقوق بدمشق 1944 ، ثم التحق بالعمل الدبلوماسي، وتنقل خلاله بين القاهرة، وأنقرة، ولندن، ومدريد، وبكين، ولندن.

عمل فور تخرجه بالسلك الدبلوماسي بوزارة الخارجية السورية، وتنقل في سفاراتها بين مدن عديدة، خاصة القاهرة ولندن وبيروت ومدريد، وبعد إتمام الوحدة بين مصر وسوريا عام 1959، تم تعيينه سكرتيرًا ثانيًا للجمهورية المتحدة في سفارتها بالصين.

وظل نزار متمسكًا بعمله الدبلوماسي حتى استقال منه عام 1966 .

تناولت دواوينه الأربعة الأولى قصائد رومانسية. وكان ديوان (قصائد من نزار قباني) الصادر عام 1956 نقطة تحول في شعر نزار قباني، حيث تضمن هذا الديوان قصيدة (خبز وحشيش وقمر) التي انتقدت بشكل لاذع خمول المجتمع العربي. طالب رجال الدين في سوريا بطرده من الخارجية وفصله من العمل الدبلوماسي في منتصف الخمسينيات، بعد نشر قصيدة الشهيرة (خبز وحشيش وقمر) التي أثارت ضده عاصفة شديدة وصلت إلى البرلمان.

كان يتقن اللغة الإنجليزية، خاصة وأنه تعلّم تلك اللغة على أصولها، عندما عمل سفيرًا لسوريا في لندن بين عامي 1952 – 1955.

تميز قباني أيضًا بنقده السياسي القوي، من أشهر قصائده السياسية (هوامش على دفتر النكسة) 1967 التي تناولت هزيمة العرب على أيدي إسرائيل التي سميت بالنكسة. من أهم أعماله: (حبيبتي) 1961، (الرسم بالكلمات) 1966، و(قصائد حب عربية) 1993.

وفي ربيع 1966، ترك نزار العمل الدبلوماسي وأسس في بيروت دارًا للنشر تحمل اسمه (منشورات نزار قباني)، وتفرغ للشعر. وكانت ثمرة مسيرته الشعرية إحدى وأربعين مجموعة شعرية ونثرية، كانت أولاها (قالت لي السمراء) 1944 ، وكانت آخر مجموعاته (أنا رجل واحد وأنت قبيلة من النساء) 1993 .

نقلت هزيمة 1967 شعر نزار قباني نقلة نوعية: من شعر الحب إلى شعر السياسة والرفض والمقاومة؛ فكانت قصيدته (هوامش على دفتر النكسة) 1967 التي كانت نقدًا ذاتيًّا جارحًا للتقصير العربي، مما آثار عليه غضب اليمين واليسار معًا.

توفي في الثلاثين من نيسان/أبريل 1999.

وقد طبعت جميع دواوين نزار قباني ضمن مجلدات تحمل اسم (المجموعة الكاملة لنزار قباني)، وقد أثار شعر نزار قباني الكثير من الآراء النقدية والإصلاحية حوله، وألفت حوله العديد من الدراسات والبحوث الأكاديمية وكتبت عنه كثير من المقالات النقدية.

قال النقاد عن نزار أنه (مدرسة شعرية) و(حالة اجتماعية وظاهرة ثقافية) وأسماهُ حسين بن حمزة (رئيس جمهورية الشعر). كما لقبّه (أحد آباء القصيدة اليومية): إذ قرّب الشعر من عامة الناس. الأديب المصري أحمد عبد المعطي حجازي وصف نزار بكونه «شاعر حقيقي له لغته الخاصة، إلى جانب كونه جريئًا في لغته واختيار موضوعاته»، لكنه انتقد هذه الجرأة «التي وصلت في المرحلة الأخيرة من قصائده لما يشبه السباب». الشاعر علي منصور قال إن نزار قد حفر اسمه في الذاكرة الجماعيّة، وأنه شكل حالة لدى الجمهور «حتى يمكن اعتباره عمر بن أبي ربيعة في العصر الحديث».

له أيضًا دور بارز في تحديث مواضيع الشعر العربي (الحديث) إذ ترأس طقوس الندب السياسي وكذلك لغته، إذ كان نزار مع الحداثة الشعرية، وكتب بلغة أقرب إلى الصحافة تصدم المتعوّد على المجازات الذهنية الكبرى. وقد ألقت حداثته بظلال كثيفة على كل من كتب الشعر، وذلك لكون قصائد نزار سريعة الانتشار.

من ناحية ثانية، كانت قصيدته «خبز وحشيش وقمر» سببًا بجدال ضخم انتشر في دمشق ووصل حتى قبة البرلمان، نتيجة اعتراض بعض رجال الدين عليه ومطالبتهم بقتله، فما كان منه إلا أن أعاد نشرها خارج سوريا، وقبل ذلك عام 1946 كتب الشيخ رفاعة الطهطاوي في القاهرة عام 1946، مقالة جاء فيها:

«كلامه مطبوع على صفة الشعر، لكنه يشمل على ما يكون بين الفاسق والقارح والبغي المتمرسة الوقحة»، وقال أيضًا: «في الكتاب تجديد في بحور العروض، يختلط فيه البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط، وتجديد في قواعد النحو، لأن الناس ملّوا رفع الفاعل ونصب المفعول». رغم ذلك فقد قررت محافظة دمشق تسمية الشارع الذي ولد فيه على اسمه، وحينها قال نزار إثر قرار المحافظة:

هذا الشارع الذي أهدته دمشق إليّ، هو هدية العمر وهو أجمل بيت أمتلكه على تراب الجنّة. تذكروا أنني كنت يومًا ولدًا من أولاد هذا الشارع لعبت فوق حجارته وقطفت أزهاره، وبللت أصابعي بماء نوافيره.

ما يثير الانتباه في شعرية نزار قباني هذا الحضور العنيف للمكان. وعلى وجه التحديد حضور دمشق المدينة التي ما فتئت تحفر في صورته وجسده. المكان الذي لا يستطيع نزار التملص من سطوته واستحواذه.

مـآذنُ الشّامِ تبكي إذ تعانقني	و للـمـآذنِ كالأشـجـارِ أرواحُ
للياسمينِ حقولٌ في منازلنا	وقطّةُ البيتِ تغفو حيثُ ترتاحُ
طاحونةُ البنِّ جزءٌ من طفولتنا	فكيفَ أنسى؟ وعطرُ الهيلِ فوّاحُ
هذا مكانُ (أبي المعتزِّ) منتظرٌ	ووجهُ (فائزةٍ) حلوٌ و لماحُ
هنا جذوري هنا قلبي هنا لغتي	فكيفَ أوضحُ؟ هل في العشقِ إيضاحُ؟
كم من دمشقيةٍ باعت أساورَها	حتّى أغازلها والشعرُ مفتاحُ
أتيتُ يا شجرَ الصفصافِ معتذراً	فهل تسامحُ هيفاءٌ ووضّاحُ؟
خمسونَ عاماً وأجزائي مبعثرةٌ	فوقَ المحيطِ وما في الأفقِ مصباحُ
تقاذفتني بحارٌ لا ضفافَ لها	وطاردتني شياطينٌ وأشباحُ
أقاتلُ القبحَ في شعري وفي أدبي	حتى يفتّحَ نوّارٌ وقدّاحُ
ما للعروبةِ تبدو مثلَ أرملةٍ؟	أليسَ في كتبِ التاريخِ أفراحُ؟
والشعرُ ماذا سيبقى من أصالتهِ؟	إذا تولاهُ نصَّابٌ ومدّاحُ؟
وكيفَ نكتبُ والأقفالُ في فمنا؟	وكلُّ ثانيةٍ يأتيك سفّاحُ؟
حملت شعري على ظهري فأتعبني	ماذا من الشعرِ يبقى حينَ يرتاحُ؟

من مفكرة عاشق دمشقي

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا	فيا دمشق... لماذا نبدأ العتبا؟
حبيبتي أنت... فاستلقي كأغنيةٍ	على ذراعي، ولا تستوضحي السببا
أنت النساء جميعاً.. ما من امرأةٍ	أحببت بعدك.. إلا خلتها كذبا
يا شام، إن جراحي لا ضفاف لها	فمسحي عن جبيني الحزن والتعبا
وأرجعيني إلى أسوار مدرستي	وأرجعي الحبر والطبشور والكتبا
تلك الزواريب كم كنزٍ طمرت بها	وكم تركت عليها ذكريات صبا
وكم رسمت على جدرانها صوراً	وكم كسرت على أدراجها لعبا
أتيت من رحم الأحزان... يا وطني	أقبل الأرض والأبواب والشهبا
حبي هنا.. وحبيباتي ولدن هنا	فمن يعيد لي العمر الذي ذهبا؟
أنا قبيلة عشاقٍ بكاملها	ومن دموعي سقيت البحر والسحبا
فكل صفصافةٍ حولتها امرأةً	و كل مئذنةٍ رصعتها ذهبا
هذي البساتين كانت بين أمتعتي	لما ارتحلت عن الفيحاء مغتربا
فلا قميص من القمصان ألبسه	إلا وجدت على خيطانه عنبا
كم مبحرٍ.. وهموم البر تسكنه	وهاربٍ من قضاء الحب ما هربا
يا شام، أين هما عينا معاوية	وأين من زحموا بالمنكب الشهبا
فلا خيول بني حمدان راقصةٌ	زهواً... ولا المتنبي مالئٌ حلبا
وقبر خالد في حمصٍ نلامسه	فيرجف القبر من زواره غضبا
يا رب حيٍ.. رخام القبر مسكنه	ورب ميتٍ.. على أقدامه انتصبا
يا ابن الوليد.. ألا سيفٌ تؤجره؟	فكل أسيافنا قد أصبحت خشبا
دمشق، يا كنز أحلامي ومروحتي	أشكو العروبة أم أشكو لك العربا؟
أدمت سياط حزيران ظهورهم	فأدمنوها.. وباسوا كف من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ.. واقتنعوا	متى البنادق كانت تسكن الكتبا؟
سقوا فلسطين أحلاماً ملونةً	وأطعموها سخيف القول والخطبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عاريةً	تبيح عزة ..... لمن رغبا..
هل من فلسطين مكتوبٌ يطمئنني	عمن كتبت إليه.. وهو ما كتبا؟
وعن بساتين ليمونٍ، وعن حلم	يزداد عني ابتعاداً.. كلما اقتربا
أيا فلسطين.. من يهديك زنبقةً؟	ومن يعيد لك البيت الذي خربا؟
شردت فوق رصيف الدمع باحثةً	عن الحنان، ولكن ما وجدت أبا..
تلفتي ... تجدينا في مباذلنا..	من يعبد الجنس، أو من يعبد الذهبا
فواحدٌ أعمت النعمى بصيرته	فانحنى وأعطى الغواني كل ما كسبا
وواحدٌ ببحار النفط مغتسلٌ	قد ضاق بالخيش ثوباً فارتدى القصبا
وواحدٌ نرجسيٌ في سريرته	وواحدٌ من دم الأحرار قد شربا
إن كان من ذبحوا التاريخ هم نسبي	على العصور .. فإني أرفض النسبا
يا شام، يا شام، ما في جعبتي طربٌ	أستغفر الشعر أن يستجدي الطربا
ماذا سأقرأ من شعري ومن أدبي؟	حوافر الخيل داست عندنا الأدبا
وحاصرتنا .. وآذتنا .. فلا قلمٌ	قال الحقيقة إلا اغتيل أو صلبا
يا من يعاتب مذبوحاً على دمه	ونزف شريانه، ما أسهل العتبا
من جرب الكي لا ينسى مواجعه	ومن رأى السم لا يشقى كمن شربا
حبل الفجيعة ملتفٌ على عنقي	من ذا يعاتب مشنوقاً إذا اضطربا؟
الشعر ليس حمامات نطيرها	نحو السماء، ولا نايًا.. وريح صبا
لكنه غضبٌ طالت أظافره	ما أجبن الشعر إن لم يركب الغضبا